اقول والله اعلم بحقيقتهم ان الشرارات ولا ريب من قبيلة كانت مجيدة يدل على ذلك منهم اليوم ما امتازوا به من الكرم على فقرهم فقد سمعت من كثير من القبائل التي تخالطهم بان الشراري اذا ضافهُ ضيف ولم يجد ما يقربه به غير ناقته الوحيدة قد يذبحها اكراماً لضيفه ولا يبالي . وعرف الشراري في البادية بأنهُ سريع النجدة منيع الحمى شجاع يستقتل دون ان ينهب ناقتهُ الغازون . كما انهُ قد عرف في بادية الشام بفراسة اسانهِ وسرعة جوابهِ وقوة شاعريتهِ البدوية وانهُ يضارع الدليمي بقوة دلالهِ وكونهِ أهدى بطرق جزيرة العرب ومسالكها من القطا

« للرحلة بقية » عز الدين آل علم الدين

صفحة من تاريخ التجارة المصرية

المشاريع والمقاصد بين مصر والبرتغال على احتكار تجارة الهند

(تابع ما قبلهُ)

وعلى ذلك اقول فيما يختص بموضوعنا ان الحروب الصليبية قد جعلت لكثير من الامم الاوربية ممالك صغيرة خاصة بهم في ارض الشام . وقد استفادت اوربا من تشييد هذه الممالك على ابواب آسيا لاستجلاب بضائع الشرق وتجارات الهند اليها مباشرة . استحوذ امر هؤلاء الصليبيين في بعض الاوقات حتى « ازعجوا دمشق عن مستقرها وقرروا عليها رسوماً فرضوها على بيت المال وعلى ارباب الاملاك والتجار وحتى دبّ دبيبهم الى مصر نفسها وارادوا انتزاعها في اواخر الدولة الفاطمية ثم اكتفوا بتقرير القطائع على خزينتها ورتبوا الشحانى (اي الاعوان) لجباية المكوس والاعشار من القاهرة والفسطاط[1] » وحتى اوشكوا على امتلاك ناصية البحر الاحمر بالقبض على طريق الحجاز باحتلال الكرك[2] ومحاولة وضع اقدامهم في الطور والعقبة بشبه جزيرة سينا[3]

---

(١) راجع مسالك الابصار لابن فضل الله العمري (٢) انظر ما تقدم ابتداءً من كلام ابن جبير

(٣) ذكر ابن فضل الله في « التعريف بالمصطلح الشريف » ان الافرنج كانوا قد تملكوا في الكرك مراكب وقطعوها في بحر القلزم بقصد الحجاز الشريف لامور سوئها لهم انفسهم فقصدت هم الغزاة الصلاحية واهلكتهم المعادلة فاخذوا وامر بهم السلطان صلاح الدين فحملوا الى مني ونحروا بها على جمر الغضا كما تقدم ابتداءً من كلام ابن جبير واستخرت بايدي المسلمين من يومئذٍ

تفطن ملوك الشرق الادنى لهذا المضار فهبوا من سباتهم وتنبهوا للقيام على مرافق بلادهم . ومع ما كانوا فيه من التخاذل والتدابر والتشاحن والتطاحن فقد رأوا ان المصلحة تقضي عليهم بانضمام الكلمة وجمع الشمل — ولم الى حين ! بهذه الغاية تأتى لاسد الدين ونور الدين وصلاح الدين ونجم الدين ثم للسلطانة شجر الدر فالظاهر بيبرس فالمنصور قلاوون تطهير ارض الشام ومصر من اولئك المغاوير المغيرين . ولكن اوربا بقيت لها عكاء وهي كل الصيد في جوف الفرا . فكانت مربط الفرس ونقطة الاتصال ومحور الحركة ومركز العمل وميدان كل امل ، ولاسيما انها هي التي كانت تصدر عنها كل التجارات الشرقية الى ما وراء البحر . حينئذٍ تكفل الاشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) بازالة هذه البقية الباقية من ملك الافرنج في بلاد الشام . فكان بها تمام الفتوح وعادت كل الثغور الى اصحابها تحت قبضة الجالس على عرش مصر . وطالما حاول البابوات اعادة الكرة على سلطان مصر وتجديد الحروب الصليبية في شكل تجاري لانصاف مصر حتى يتمكنوا بذلك من استرجاع ما فقدوه في الشام من الممالك[1] لكن التجارة نفسها حالت بينهم وبين ما يشتهون فان مكاسبها ومغانمها حملت الدول التجارية الاوربية على الاخلاد الى السكينة ومقابلة القضاء بالرضاء في نظير تبادل الاخذ والعطاء

اصبحت ازمة تجارات المشرق كلها بيد مصر واهلها . فلم يكن بدٌّ للامم التجارية المتوطنة على ضفاف البحر الابيض المتوسط شمالاً وغرباً من الاذعان لاسواق الاسكندرية ودمياط وبيروت . فكان البنادقة والجنويون والقطلان (Catalana) يتهافتون عليها اذ لم يكن لهم سبيل سواها للحصول على بضائع المشرق لاسيما الفلفل وتوابل الهند التي اشتد ولع القوم في اوربا بها بحيث اصبحوا وهم لا غناء لهم عنها

فكان سلاطين مصر وتجارها يربحون من هذه التجارة ارباحاً طائلة وانهالت على مصر والشام مغانم ومكاسب فوق كل تقدير وحسبان ولا بدع ان صارت القاهرة مخزناً عاماً لجميع تجارات آسيا واوربا لعقد معاملاتها من جبل طارق الى اقاصي الهند . ولذلك كان الافرنج كلهم في ذلك العهد لا يسمونها الاَّ بالقاهرة العظمى Le Grand Caire

بقي الحال على هذا المنوال زهاء قرنين من الزمان او بالتحقيق منذ فتح عكاء سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) الى انقراض دولة المماليك البرجية في سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٦ م) حينما

(١) بل ان شارل الثامن ملك فرنسا المعروف بالبشوش كان في عزمه تجهيز اسطول كبير للاستيلاء على فلسطين واسترجاع الاراضي المقدسة (عن المقتطف في ابريل سنة ١٩١٧)

فقدت مصر استقلالها وخسرت مكانتها السياسية في العالم الاسلامي بعد ان ضاع مركزها التجاري على اثر اكتشاف البرتقال لرأس الرجاء الصالح وهكذا كانت « مصائب قوم عند قوم فوائد »

ذلك الحادث الجلل يدعونني الى شيء من البيان اذ لم يتعرض لشرحه الى الآن احد من اهل مصر ولا من الناطقين بالضاد . فلا غنى لنا اليوم عن هذه الفرصة الثمينة لاحاطة اهل البيت علماً بما كان يجب ان يكونوا ادرى الناس به ولا يتشكك مثل خبير

في تلك الحقبة التي اخترتها موضوعاً للكلام أي من سنة ١٩٨ الى سنة ٩٢٣ هـ (١٤٩٣ — ١٥١٧ م) كان العثمانيون يطمحون الى الاستيلاء على مصر بعد ان انتزعوا كثيراً من مستعمرات البندقة في الارخبيل اليوناني وفي بحر مرمرة وكان ملك البرتقال قد وطّن نيته وصحت عزيمته على انتزاع السيادة التجارية من مصر وتحويل بضائع الهند وثمراته الى لشبونة حتى لا تكون اوربا كلها تحت رحمة الجالس على عرش النيل . لذلك اخذ الملك يوحنا الثاني يسعى اولاً في توسيع ممالكه المتدانية الاطراف بالفتح والاستعمار واكتشاف ما وراء البحار

فكان من الطبيعي ان تتحد المصلحة السياسية والتجارية يزيد في ارتباط السلطان الغوري مع جمهورية البندقة لدفع هذه الغائلة المزدوجة التي كانت تتهدد كلاً منهما بسوء المنقلب وبوخيم العاقبة . وهو ما حصل فعلاً . وانّى لحذر أن يمنع من قدر !

وقبل ان استرسل في شرح هذه المخالفة والافاضة فيما تقدمها من الحوادث وما أعقبها من الخطوب أرى من الواجب ان استطرد بالكلام الى ذكر مملكة اسبانيا بعد تجدد شبابها وتوحد كلمتها وارتفاع شأنها وشيوع صيتها في الآفاق . فلقد كانت هي ايضاً في تلك الحقبة التاريخية تجول في خواطر ابنائها الآمال الكبار ويحلمون بامتلاك ازمة السياسة ونواصي التجارة في العالم . لذلك نراهم ينافسون جيرانهم البرتقاليين في اكتشاف ما وراء البحار ويسابقونهم في استعمار الممالك واستعباد الامصار

اقرأ بنا كيف كانت مصر المحبوبة في ذلك الاوان واقعة بين براثن ثلاثة خصوم : الترك والاسبان والبرتقال

نترك الترك جانباً لانهم كانوا انما يتطلبون الزعامة الدينية والسيادة السياسية فقط . وقد فطرني الله ايها السادة على كراهة السياسة وكره الساسة (من حيث كونهم ساسة ليس الاّ)

فلننظر الى ما يعنينا بصفتنا مصريين من شؤون الاسبان والبرتقال فقد كان كل منهما يحرش ببلادنا لانتزاع مكانتها التجارية

نظر الاوربيون فرأوا انفسهم منذ فتح عكاء يؤدون لمصر جزية كبيرة واتاوة باهظة في شكل عمولة ومصرة . فاعملوا فكرتهم واخذوا اهبتهم لتحاول محل مصر في التجارة العالمة الاممية لتتوفر عليهم تلك المغارم الفادحة ولتدر لهم تلك الارباح الطائلة

اخذ اهل الرأي في التفكير واقبل ارباب العزيمة على التدبير الى ان تجلت امامهم نظريتان لحل هذا المشكل العويص : احداهما الاسبان في المحيط الاطلنطي غرباً للانتهاء الى بلاد الهند من جهة الشرق . وثانيتهما الطواف حول افريقيا للوصول الى الهند بطريق البحر مباشرة

اختمرت هاتان الفكرتان في جنوه اولاً ثم في لشبونة وتحدث الناس بشأنهما في كل من القطرين المتجاورين (اسبانيا والبرتقال) اللذين كانت تتألف منهما يالامس الخلافة الاموية المجيدة في ربوع الاندلس الزاهرة

فاما النظرية الاولى — الاسبان في المحيط الاطلنطي غرباً — فان اول من توهمها . . . . من الاوربيين . . . . هو رجل من سكان جنوه . اقول « من الاوربيين » عمداً وقصداً مع الترصد والتربص وسبق الاصرار . لانني سأثبت لكم ان المسلمين في الاندلس وفي مصر قد كان لهم فضل السبق الى التفكير في هذه النظرية بل الى محاولة تحقيقها فعلاً وابرازها الى عالم الوجود

أنا ارى من اخص واجباتي بل من اجملها بل من اقدسها ان اغتنم هذه الفرصة السعيدة في هذا اليوم المشهود لاماطة حجاب النسيان الذي اسدلته مظالم الانسان والايام على مفخرة من مآثر العرب الكرام وعلى ما كان لهم في هذا الباب من نظر بعيد ثاقب ومن اقدام جميل محمود ، وان كانوا لم يفوزوا بما هم اهل له من تكليل عمائمهم في هذا المسعى بتاج النجاح

الاوربيون يعلموننا ان كرستوف كولومب من اهل جنوة هو اول رجل خطر على بالهِ امكان الوصول الى الهند عن طريق المحيط الاطلنطي غرباً بدلاً من الطريق المعتادة المسلوكة من جهة الشرق في البحر الابيض المتوسط ومصر والبحر الاحمر ثم بحر اليمن . وانهُ ذهب الى لشبونة وعرض مشروعهُ على يوحنا الثاني . ولكن كان من سوء حظ هذا الملك انهُ لم يستمع لهُ وان اهل حاشيتهِ وبطانتهِ اجمعوا على ان الجنوي مجنون او مفتون وحكموا عليهِ بانهُ على الاقل مغرور مغرور . هكذا نصيب السواد الاعظم من ارباب العقول

الكبار ! ولذلك يرح الرجل لشبونة غضبان آسفاً وولّى وجهه شطر اسبانيا مع جنونه الذي يقولون وافرغ كل ما في وسعه من المساعي حتى اصغى اليه ملكاها فرديننند وايزابلا الكاثوليكيان . فكان من امره معهما ما كان وتم له اكتشاف الدنيا الجديدة التي سماها الناس كلهم في ذلك الوقت « الهنود الغربية »[1] (Indes Occidentales) . لان كولومب انما كان يقصد الوصول الى الهند فلما انتهى الى بلاد لم يكن يتخيلها سماها بهذا الاسم واكتفى بها عن الهند المطلوبة . بذلك الاكتشاف اندفعت مراسي الاسبان عن مصر من الوجهة التجارية إذ كان للقوم في ملكهم الجديد الفسيح الطويل العريض ما يغنيهم عن الشرق وما فيه

هذا من حيث مصر ومركزها التجاري مع اسبانيا . اما عن الفكرة الاساسية التي ادّت الى اكتشاف امريكا فاقول :

ليت شعري ! هل خطر على قلب كولومب وهو واقف في لشبونة يرسل نظراته وبعث آماله الى ما وراء هذه الامواج المتلاطمة كالجبال في المحيط الاطلنطي ، ليت شعري ! أكان يدري ام لا يدري ان العرب الاندلسيين قد سبقوه الى موقفه هذا في لشبونة هذه الى ما هو ابعد من غايته وابعد من مطالبه

نعم ليت شعري ! هل جاءه نبأ بما كان من المسلمين من اهل لشبونة المعروفين باسم « المغررين » الذين فكّروا فيه بكثير من السنين في ركوب بحر الظلمات واقتحامه ليعرفوا ما فيه من الاخبار والعجائب ويقفوا على نهايته ؟

ليت شعري هل بلغه بالذات او بالواسطة ان ثمانية من اولاد العم المسلمين اعتمدوا على انفسهم فانشأوا مركباً حمّالاً وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لاشهر ثم دخلوا البحر في اول طاروس الريح الشرقية (اعني هبوبها لتدفع بسفينتهم في طريقها حتى مغرب الشمس) وانهم جروا بمركبهم نحواً من احد عشر يوماً الى آخر ما ذكره عنهم الشريف الادريسي في كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ؟

ليت شعري ! هل علم كولومب وهو في لشبونة ان في لشبونة ديراً في موضع قريب من الحمّة يسمى بدرب المغررين تخليداً لذكرى سابقيه « المجنونين المفتونين المغررين

(١) و بذلك الاسم وردت في كتب العرب المدونة في القرن الحادي عشر للهجرة (انظر مقدمة كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالبارود والمدافع) من ضمن الكتب التي نقلها بالفوتوغرافية وهو بدار الكتب السلطانية

المغربين »؟ اولئك الذين تقدموهُ الى السعي في ارتياد بحر الظلمات لاكتشاف الدنيا الجديدة التي وفقهُ الله الى النزول عليها بطريق الصدفة والاتفاق لا بطريق التحقيق واليقين لانهُ هو انما كان يقصد بلاد الهند من جهة الغرب ولا شيء غير ذلك

هذا من جهة التنفيذ ومن الوجهة العملية

اما من حيث النظرية نفسها فاقول :

ليت شعري ! هل درى كرستوف كولومب بان عالمًا من علماء القاهرة في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون قد سبقهُ اليها

مالي وللتساؤل فاليكم ما رواهُ ابن فضل الله العمري في موسوعاته الحافلة الموسومة بـ « مسالك الابصار في ممالك الامصار » . فقد اورد في الجزء الاول منها (ص ٣١) ما نصهُ :

« قال شيخنا فريد الدهر ابو الثناء محمود بن ابي القاسم الاصفهاني امتع الله به !

« لا امنعُ ان يكون ما انكشف عنهُ الماء من الارض من جهتنا منكشفًا مثلهُ من الجهة الاخرى . واذا لم امنع ان يكون منكشفًا من تلك الجهة لا امنعُ ان يكون بهِ من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا او من انواع واجناس اخرى »

أفلا يرى اهل العدل والانصاف من جميع الطبقات والاصناف ان للاصفهاني (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولومب (وهو بالاندلس) لانهُ قال بهذه النظرية قبلهُ بقرن ونصف قرن ؟ وللاصفهاني فضل اكبر على مكتشف اميركا لانهُ تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . واما كولومب فانما توهم وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفي ابو الثناء في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . واما كولومب فقد اجتهد في اقناع فرديننند وايزابلا أصاحبي الاندلس بصدق نظريتهِ في سنة ١٤٩٢ (الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ)

***

الآن وقد قمت بواجبي من نشر صفحة مطوية فيها مفخرة من مآثر العرب فما لهُ علاقة بموضوعي في هذا اليوم ، فلأتركن اسبانيا وكولومبها جانبًا لان اكتشاف اميركا وما اعقبهُ من عظمة اسبانيا التجارية لم يكن من شأنهما مزاحمة مصر في مركزها ولا في مزاياها

فلم يبق معي من خصوم مصر في تلك الحقبة سوى دولة البرتقال

وهنا تجب الاشارة بالاختصار الى النظرية الثانية حتى ينفسح امامنا المجال الى ما جرى من التنازع والتخاصم بين البرتقال وبين مصر على احتكار تجارة الهند

فلك ان النظرية الثانية تنحصر في الطواف حول افريقيا بطريق البحر الاطلنطي توصلاً الى بلاد الهند بحراً ومباشرة

اول من خطرت على بالهم هذه النظرية هم اهل جنوة ايضاً . لست انازعهم في هذا الفخار الباقي لم يدر لم يصل الى علمي للآن ان عرب الاندلس او اهل المغرب الاقصى تخيلوا هذه الطريق . فليبق هذا المجد لاهل جنوة وان كانوا جنوا بو جناية كبرى على مصر لا في مصلحتهم بل في مصلحة الغير فقد صح عليهم المثل السائر : ربما ساع لقاعد ! وكان شأنهم كما قال الشاعر :

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه

مهما يكن من امر النتائج الفعلية فقد خطرت هذه الفكرة على بال اخوين شقيقين من اهل جنوة هما اوجولينو وفاديتو من آل ڤيڤالدي (Ugolino et Vadimo Vivaldi) وكان شأنهما شأن ابناء العم الثانية المغرمين من اهل لشبونة المطلين . فانهما في سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ — ٦٩١ هـ) ركبا رأسهما وانطلقا مع هواهما وغرّرا بانفسهما وليجا في المحيط الاطلنطي نحو الجنوب لتحقيق هذا المطلب العزيز وهو الوصول بالبحر الى طريق الهند . غير ان الرجلين لم يظفرا بامنيتهما بل نشبت بهما اظفار المنية . فراحا في جملة من راح شهيد الآمال الكبار . غرق الرجلان ولكن فكرتهما لم ترسب معهما في قاع البحار بل بقيت حائمة في الاذهان تتردد بين الصدور والجوانح نحو قرنين من الزمان . ثم انتقلت من امتهما ومن البحر الابيض المتوسط الى امة اخرى ناهضة هي اجدر بتحقيقها لوجودها على ساحل المحيط الاطلنطي تلك هي امة البرتقال

***

كانت تجارة اوربا مع الهند تسير من قديم الزمان في طريقين لا ثالث لهما . احدهما عن نهر الفرات والثاني عن مدينة الاسكندرية . حتى اذا كان اكتشاف الدنيا الجديدة وطريق رأس الرجاء الصالح حدث في العالم انقلاب جعل بلاد الغرب مركز الحضارة الحديثة وجعل الشرق في انحطاط بأثر يأس اوربا في كل شيء . وبسير وراءها في كل ميادين الحياة

ذلك ان البرتقال بعد ان ساعدهم الزمان واتحاد الكلمة على طرد العرب من بلادهم ، تعقبوهم في شطوط افريقيا ليمحوا دينهم من الوجود[1] و ينتزعوا من ايديهم مصادر الثروة

(١) انظر مقتطفات

والرفاهية . فكان كل نصر ينالونهُ داعية لارسال تجريدة جديدة على بلاد الغرب الاقصى . واقبلت الدنيا عليهم وابتسم لهم الزمان فكان ذلك موجباً لتهافت اهل الاقدام والمخترعين باقتحام الاخطار على مدينتهم لشبونة . فراحوا حينئذٍ يتسلّون اليها من كل حدب : من ايطاليا ، من قشتالة ، من هولندة ، من المانيا ، لمشاركة ابنائها في هذه الغزوات المتواصلة طلباً للمعالي والفخار . بهذه المثابة دبّت في البلاد حركة جديدة من الحماس لم يكن لها نظير في سابق الزمان . ولقد كان لربات الخجال من بنات البرتغال اليد الكبرى في ايجاد هذا التيار تيار الحمية والاقدام . فقد آلين على انفسهن ان لا يتزوجن بغير الفتيان الذين يثبتون براعتهم وشجاعتهم في سواحل افريقيا . والمرأة اذا وجهت فكرها الى غرض من الاغراض كان امراً مقضيّاً ، يشهد بذلك تاريخ العرب والعجم وسائر الامم . لهذا السبب انهال البرتغاليون ومن انضاف اليهم من شباب الشعوب الاخرى على ركوب البحر والضرب فيهِ حتى امتلكوا نواصيهُ وموانيهُ وثغورهُ ومرافئهُ وبنادرهُ ومراسيهُ . فاصبحت الممالك المتناثرة على الساحل الغربي لافريقيا مستعمرات لتلك المملكة الناشئة الناهضة . ولقد كان لتقارير العرب واليهود اثر كبير في هذه الحركة المقرونة بالبركة لانهم احاطوا ملوكها ولاسيما الملك هنري الملقب بالملاّح المولود سنة ١٣٩٤ م — (٧٩٧ هـ) المتوفى سنة ١٤٦٠ م — (٨٦٥ هـ) او سنة ١٤٦٣ — (٨٦٨ هـ) بما في داخل تلك البلاد من الخيرات والارزاق وخصوصاً ما في غانة (Guinée) من معادن الذهب . وهكذا اخذ رجال البرتغال يتقدمون مرحلة فمرحلة في بحر الظلمات منذ سنة ١٣١٤ م — ٧١٤ هـ حتى وصل برتلمي دياز في سنة ١٤٨٦ (٨٩١ — ٨٩٢ هـ) الى اقصى نهاياتهِ في جنوب افريقيا وهو الطرف الذي وصفهُ قطب الدين النهروالي صاحب كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» بانهُ موضع « قريب من الساحل في مضيق احد جوانبهِ جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الامواج لا تستقر بهِ سفائنهم وتتكسر »

تلك الاهوال هي التي حملت دياز على تسميتهِ برأس الزوابع ولكن عبقرية يوحنا الثاني ملك البرتغال جعلتهُ يغتبط بهذا الاكتشاف ويرى فيهِ تحقيق احلامهِ بالوصول الى الهند عن طريق البحر فسمى هذا الرأس من باب التفاؤل والتيمن برأس الرجاء الصالح . ولذلك اخذ في تدبير الوسائل التي يبلغ بها كل المرام . فبدأ بالعمل على ارتياد الهند اولاً من الطريق المعتادة فبعث في سنة ١٤٨٧ (٨٩٣ هـ) برسولين هما بطرس كوفيلهم (Pedro Covilham) والفونسو دوبايفا (Alphonse de Paiva)

هبط الرجلان على الاسكندرية ثم ذهب الى رشيد بطريق البر ومنها ركبا النيل حتى القاهرة حيث انضما الى قافلة من تجار فاس وتلمسان وذهب في رفقتها الى الطور ومن هنالك أبحرا الى صنن فذهب ثانيهما الى الحبشة فكان فيها حتفهُ واما الاول فانحدر في بحر اليمن حتى وصل الى الهند ونزل على ساحل مليبار ودرس تجارة كُرْه (Goa) وكاليكوت (Calicut) وغيرهما من البنادر التجارية ثم انقلب الى البر الشرقي لافريقيا فزار سفالة الزنج وما فيها من معادن الذهب . وفي تلك البقعة تأتى لهُ جمع بيانات وثيقة وافية عن القسم الجنوبي الذي ينتهي الى جزيرة مدغشقر . ثم عاد افراجهُ نحو جزيرة هرموز في جنوبي الخليج الفارسي لاستكمال معلوماتهِ عن تجارات المشرق ومن ثم عاد الى زنجبار قاصداً بلاد الاحباش فقبض عليهِ النجاشي وحال دون عودتهِ الى وطنهِ . لكن تقاريرهُ وملكراتهِ وصلت الملك يوحنا فكانت مكملة ومتوجة لما توصل اليهِ دياز . غير ان الملك يوحنا الثاني كان قد اصابهُ مرض طويل اعقبهُ الموت فلم يتمتع بثمرة هذه الانتصاب . بل كان من سعادة خليفتهِ على عرش البرتقال وهو عمانويل الثاني الملقب بالسعيد ارسال قاسكو دوجاما في اواخر صيف سنة ١٤٩٧ الى بلاد الهند فاتخذ طريقهُ في البحر مَرّبًا واجتاز رأس الرجاء ووصل الى ساحل بلاد الكفرة ثم منبسة ثم ملندة وهنالك توصل الى التعرف كما يقول قطب الدين النهروالي في « البرق اليماني » بشخص « ماهر من اهل البحر يقال لهُ احمد بن ماجد صاحبهُ كبير الفرنج وكان يقال لهُ أنى مَلَنْدى[1] وعاشرهُ في السكر فعلمهُ الطريق في حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تناكم الامواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند » . اما مؤرخو البرتقال فلا يذكرون اسم احمد بن ماجد هذا مطلقاً بل يقولون ان الذي رافق قاسكو هو رجل اسمهُ المعلم كنَه (Malem Cana) وانهُ توفي بكجرات والبعض الآخر يدعوهُ المعلم كنكة (Malem Canaqua) ومنهم مَن يقتصر على تسميتهِ كنكة (Canaqua) فقط وهنالك فريق ثالث يقول ان سلطان ملنده ارفق قاسكو برجلين من اهل بلادهِ العارفين بسلك هذا البحر الهندي

« ستأتي البقية »

احمد زكي باشا
سكرتير مجلس الوزراء

(١) هو الاسم الذي اطلقهُ طائفة من المؤرخين على قاسكو دوجاما وقد سبق لنا شرحهُ